

الأسماء المتعلقة بصفة البقاء

بعد أن ذكرنا أسماء الله الحسنى المتعلقة بصفة القدم، ننتقل للكلام عن الأسماء المتعلقة بصفة البقاء وهي ثلاثة (الآخر، والباقي، والوارث) وسنشرح هذه الأسماء واحداً واحداً.

78 – الآخر

معناه

الآخر هو الذي ليس بعده شيء، ولا آخر لوجوده، والباقي إلى ما لا نهاية. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]. وقد ورد هذا الاسم في موضع واحد من القرآن الكريم فقط، هو هذا. وجاء في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء من «صحيحه»، باب ما يقول عند النوم، الحديث (2713) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ أمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء...».

أقوال العلماء

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: «الآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، والأول والآخر متناقضان، فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد، بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخر جميعاً، بل إذا نظرت إلى ترتيب الوجود، ولاحظت سلمة الموجودات المرتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول، إذ الموجودات كلها استفادت الوجود منه، وأما هو فموجود بذاته، لم يستفد الوجود من غيره.

ومهما نظرت إلى ترتيب السلوك، ولاحظت مراتب منازل السائرين إليه، فهو آخر ما يرقى إليه درجات العارفين، وكل معرفة تحصل قبل معرفته، فهي مرقاة إلى معرفته، والمَنزِلُ الأقصى هو معرفة الله تعالى، فهو آخر بالإضافة إلى السلوك، أول بالإضافة إلى الوجود، فمنه المبدأ أولاً، وإليه المرجع والمصير (آخرًا). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: الآخر، وهو الباقي بعد فناء خلقه كله ناطقه وصامته).

أقوال المفسرين

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصص: 22].

أي لا تليق العبادة إلا له، ولا تبغي الإلهية إلا لعظمته. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: 26، 27]، فعبّر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي إلا إياه. وقد ثبت في «الصحيح»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لِمَحَالَةِ زَائِلٌ
وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي إلا ما أريد به وجهه.

وحكاه البخاري في «صحيحه» كالمقرر له. قال ابن جرير: ويُسْتَشْهَدُ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَنْتُ مُخْصِيهِ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ
وهذا القول لا يُنافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها

باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب: «التفكير والاعتبار» بسنده إلى أبي الوليد قال: كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخبرة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ الْخُكُومُ﴾ أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه ﴿وَالَّذِينَ يَرْجِعُونَ﴾، أي يوم معادكم فيجزئكم بأعمالكم إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: 26، 27)، فيخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن أرب تعالى وتقدس لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: (أنبا ربنا بما خلق، ثم أنبا أن كل ذلك فان). وفي الدعاء المأثور: (يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك).

وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهل أن يجلل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف.

أمر هذا الاسم على العبد

إن من علم أن الله هو الآخر الباقي الذي ليس لآخره وجود، الخالد الأبدي لا يلحقه فناء ولا عدم آمن به، وتمسك بطاعته، وقطع صلته بما سواه من الموجودات الفانية الزائلة، كالمال والزوجة والأولاد، والعشيرة والأهل والتجار، وعلق قلبه بالباقي الحي الذي لا يموت؛ لأنه وحده هو الحق، وما

سواه باطل، وقدم لمولاه العبادة والطاعة.

79 — الباقي

معناه

هو الدائم الوجود الذي لا يقبل الفناء ولا يلحقه العدم، فلا بداية لوجوده ولا نهاية له. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَسَبَقَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْمَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرحمن: 26، 27]، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم بهذه الصيغة، ولكنه ورد بصيغة الفعل كما رأينا في الآية السابقة، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 73]، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة، وأخرجه الإمامان الترمذي، وابن ماجه في «سننهما»، والإمام البيهقي في كتابه «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الباقي هو الواجب الوجود في ذاته، ولكنه إذا أضيف في الذهن إلى الاستقبال سمي باقياً، وإذا أضيف إلى الماضي سمي قديماً.

والباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر، ويُعبّر عنه بأنه أبدي، والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضي إلى أول، ويُعبّر عنه بأنه أزلي.

وقولنا: (واجب الوجود بذاته) مُتضمن لجميع ذلك. وإنما هذه الأسامي بحسب إضافة هذا الوجود في الذهن إلى الماضي أو المستقبل، وإنما يدخل في الماضي والمستقبل المتغيرات؛ لأنهما عبارتان عن الزمان، ولا يدخل في الزمان إلا التغير، والحركة، إذ الحركة بذاتها تنقسم إلى ماضٍ ومُستقبل، والمتغير يدخل في الزمان بواسطة التغير. فما جَلَّ عن التغير والحركة، فليس في زمان، فليس فيه ماضٍ ومُستقبل، فلا يتفصل فيه القدم عن التقابل.

والماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذا مضى علينا وفيما أمور، وسيَتَجَدَّدُ أمور، لا بُدَّ من أمورٍ تُحَدِّثُ شيئاً بعد شيء، حتى تَنْقَسِمَ إلى ماضٍ قد انْعَدَمَ وانقطع، وإلى زمانٍ حاضِرٍ، وإلى ما يُتَوَقَّعُ تجدُّده من بعد، فحيثُ لا تَجَدَّدُ ولا انقضاء فلا زمان. وكيف لا؟ والحقُّ تعالى قَبْلَ الزمان، وحيثُ خَلَقَ الزمان لم يتغيَّرَ من ذاته شيء، وَقَبْلَ خَلْقِ الزمان لم يكن للزمان عليه جريانٌ، وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان). انتهى كلام الإمام الغزالي.

ويقول الإمام المحدث اللغوي مجدُّ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: الباقي، هو الذي لا ينتهي تقديرُ وجودِهِ في الاستقبال إلى آخرٍ ينتهي إليه، ويُعبَّرُ عنه بأنه أبديُّ الوجود).

وفي حديث معاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة من «سننه» باب وقت العشاء الآخرة، الحديث (421): «بَقِيَْنَا رَسولَ اللَّهِ ﷺ وَقَد تَأَخَّرَ لِصَلَاةِ الْعَتَمَةِ» يُقَالُ: بَقِيَْتُ الرَّجُلَ أَبْقِيَهُ إِذَا انْتَظَرْتَهُ وَرَقَبْتَهُ.

أقوال المفسرين

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَمْ قَبَلْ أَنْ ءَأَدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ ءَأَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۖ﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ﴾ (٧٢) إِنَّا ءَأَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ (٧٣) [طه: 71 - 73].

يقول تعالى مُخْبِرًا عن كُفْرٍ فِرْعَوْنَ وَعِبَادِهِ وَبَغْيِهِ وَمَكَابِرَتِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ حين رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة من انقلاب العصا التي ألقاها موسى حياةً تسعى، ورأى الذين قد استنصر بهم من السحرة قد آمنوا أول من آمن بالله تعالى رب العالمين بحضرة الناس كلهم، وَعُلبِ كُلُّ الْعُلْبِ، شَرَعَ فِي الْمَكَابِرَةِ وَالْبُهْتِ، وَعَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ وَجَاهِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السِّحْرَةِ، وَهَذَا

ذَابَ الْمُجْرِمِينَ، أَنَّهُمْ إِذَا أَنهَزُوا فِي الْحِجَاجِ وَالْمُنَاطِرَةِ الْمُنطِقِيَةَ الْعَقْلِيَّةَ، وَقَامَتْ ضَدَّهُمُ الْأَدِلَّةُ وَالْبَرَاهِينُ شَاهِدَةً عَلَى بَطْلَانِ حُجَجِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ، لَجَأُوا إِلَى اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ ضِدَّ أَحْصَامِهِمْ، وَهَكَذَا تَهَدَّدَ فِرْعَوْنُ السَّحْرَةَ وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿ءَأَمَنْتُمْ لِي﴾ أَي لِمُوسَى وَصَدَقْتُمْ بِهِ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ﴾ أَي وَمَا أَمَرْتُمْ بِذَلِكَ، وَقَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ هُوَ وَالسَّحْرَةُ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ بُهَّتْ وَكَذِبَ: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، أَي أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى وَأَتَّفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ، وَعَلَى رَعِيَّتِي لِتُظْهِرُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123]، ثُمَّ أَخَذَ يَتَهَدَّدُهُمْ فَقَالَ: ﴿فَلَا قُطَيْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مَن خَلْفٍ وَأَصْلَيْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾، أَي لِأَجْعَلَكُم مِّثْلَهُ وَلَا قُتْلَنَاكُمْ وَلَا شَهْرَتَكُمْ.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أَي أَنْتُمْ تَقُولُونَ: أَنِّي وَقَوْمِي عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى الْهُدَى فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَكُونُ لَهُ الْعَذَابُ وَيَبْقَى فِيهِ، فَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فِي اللَّهِ ﷻ: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ﴾، أَي لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى مَا حَصَلَ لَنَا مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ، يَعْنُونَ: لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ، الْمُبْتَدَى خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ ﴿فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أَي فَافْعَلْ مَا سِئْتُ وَمَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ يَدُكَ ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي إِنَّمَا لَكَ تَسَلُّطٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَهِيَ دَارُ الزَّوَالِ، وَنَحْنُ قَدْ رَغِبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ.

﴿إِنَّا ءَأْمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا﴾ أَي مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الْإِثَامِ خُصُوصًا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ لَتُعَارِضَ بِهِ آيَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَمُعْجِزَةَ نَبِيِّهِ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَي خَيْرٌ لَنَا مِنْكَ ﴿وَأَبْقَى﴾ أَي أَدْوَمُ ثَوَابًا مِمَّا كُنْتُ وَعَدْتَنَا وَمَنَيْتَنَا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْطُبِيِّ ﴿وَأَبْقَى﴾ أَي مِنْكَ عَذَابًا إِنْ عَصَيْتَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ صَمَمَ عَلَى ذَلِكَ وَفَعَلَهُ بِهِمْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَصْبَحُوا سَحْرَةً وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ.

80 - الوارث

معناه

وهو في بعض معانيه: الباقي بعد فناء الموجدات.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم بصيغة الجمع ثلاث مرات.

(الأولى): قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُحْيِي وَيَوْمَ نُنزِّلُ الْوَارِثِينَ﴾ [الحجر:

[23].

(والثانية): قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:

[89].

(والثالثة): قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ مَ بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ

مَسْكَنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58].

وورد بصيغة الفعل مرتين:

(الأولى): قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم:

[40].

(والثانية): قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا

وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَوْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَكَتُ مِمَّا يَقُولُ وَمَنْ أَلْمَأ

مِنَ الْعَذَابِ مَذًّا ﴿٧٩﴾ وَرَبُّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: 77 - 80].

وورد بصيغة مالك الميراث في موضعين:

(الأول): قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:

[180].

(والثاني): قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرِثُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 10].

كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنی الذي رواه أبو

هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الإمامان الترمذي وابن ماجه في «سننهما»، والإمام البيهقي في «الدعوات».

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: (الوارث هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك. وذلك هو الله سبحانه؛ إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كل شيء ومصيره، وهو القائل إذ ذاك: ﴿لِمَن الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، وهو المجيب: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، وهذا بحسب ظن الأكثرين إذ النداء عبارة عن حقيقة ما يكسب لهم في ذلك الوقت.

فأما أرباب البصائر، فإنهم أبدأ مشاهدون لمعنى هذا النداء، سامعون له من غير صوت ولا حرف، يوقنون بأن الملك لله الواحد القهار في كل يوم، وفي كل ساعة، وفي كل لحظة، ولذلك كان أزلاً وأبداً.

وهذا إنما يدركه من أدرك حقيقة التوجيه في الفعل، وعلم أن المنفرد بالفعل في الملك والملكوت واحد، وقد أشرنا إلى ذلك في أول كتاب التوكل من: «إحياء علوم الدين» فيطلب منه).

ويقول الإمام مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزري الشافعي رحمه الله في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»: (في أسماء الله تعالى الوارث هو الذي يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم).

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي في كتاب الدعوات من «جامعه»، باب (67) الحديث (3480): «اللهم متعني بسنعي وبصبري، واجعلهما الوارث مني»، أي أبقيهما سليمين صحيحين إلى أن أموت. وقيل: أراد بقاءهما وقوتهما عند الكبر وانحلال القوى النفسية فيكون السمع والبصر وارثي سائر القوى، والباقيين بعدها. وقيل: أراد بالسمع وعي ما ينم عن العمل به، وبالبصر الاعتبار بما يرى. وفي رواية: «واجعله الوارث مني» على أفراد «واجعله» فرداً الهاء إلى الإمتاع، فلذلك وحده.

أقوال المفسرين

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [١١] وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَيْتُمْ كُمُوهَ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٣﴾ [الحجر: 33].

يُخبر تعالى أنه مالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَأَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنَ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كَمَا يَشَاءُ وَكَمَا يُرِيدُ، وَلِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالرَّحْمَةِ بَعْبَادِهِ، لَا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ، بَلْ هُوَ ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]. أَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ، قَالَ: «مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقْسِمُهُ بَيْنَهُمْ حَيْثُ شَاءَ، عَاماً هَهُنَا، وَعَاماً هَهُنَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾».

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾، أَي تُلْفَحُ السَّحَابَ، فَتَدْرُ مَاءً وَتُلْفَحُ الشَّجَرَ، فَتَفْتَحُ عَنْ أَوْزَاقِهَا وَأَكْمَامِهَا. وَذَكَرَ ﴿الرِّيحَ﴾ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِيَكُونَ مِنْهَا الْإِنْتِاجُ بِخِلَافِ ﴿الرِّيحِ الْعَقِيمِ﴾ فَإِنَّهُ أَفْرَدَهَا، وَوَصَفَهَا بِالْعَقِيمِ، وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتِاجِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَصَاعِداً. أَخْرَجَ الْأَعْمَشُ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾، قَالَ: «تُرْسَلُ الرِّيحُ فَتَحْمَلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَمُرُّ السَّحَابَ حَتَّى تَدْرُ كَمَا تَدْرُ اللَّفْحَةُ»، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «يَبْعَثُ اللَّهُ عَلَى السَّحَابِ فَتُلْفَحُهُ فَيَمْتَلِئُ مَاءً». وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ عَنْ أَنْوَاعِ الرِّيحِ: «يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُبَشِّرَةَ فَتَقُمُّ الْأَرْضَ قَمًا - أَي تَكْنِسُهَا كُنْسًا - ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُثِيرَةَ فَتُبِيرُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلِّقَةَ فَتُوَلِّفُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْوَاقِحَ فَتُلْفَحُ الشَّجَرَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾. وَأَخْرَجَ ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرِّيحُ الْجَنُوبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَفِيهَا مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ».

وقوله: ﴿فَأَنْفَيْتُمْ كُمُوهَ﴾، أَي أَنْزَلْنَا لَكُمْ عَذْبًا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: 70].

وقوله: ﴿وَمَا أَنشَأَ لَهُمُ الْبُيُوتَ إِلَّا بُعْثًا﴾ قال سفيان الثوري: أي بما نعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين في الأحواض، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً ونابيع في الأرض، ولو شاء الله تعالى لأغاره في الأرض وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أخبر تعالى أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.